الباب الخامس

البديع .. في القرآن الكريم

المحسنات المعنوية .

المحسنات اللفظية .

قيمة البديع القرآني .

obeikan.com

صفحة بيضاء

الفصل الأول

المحسنات المعنوية

الظاهر أن نظرة الكُتَّاب لم تتفق على آراء محددة في فنون البديع ، ولذلك يجد الباحث خلطًا في كتاباتهم ، وهذا الخلط له عدة مظاهر :

أولاً : لم يحددوا تحديدًا دقيقًا الفرق بين المعنوي واللفظي منه ، فالخطيب يذكر «الاطراد» ضمن المحسنات المعنوية ، وهو من اللفظية على الأصح[1] . كما ذكر المشاكلة ضمن المعنوية والظاهر أنها من اللفظي .

ثانيًا : درجهم فنونًا تحت اسم «البديع» وهي ليست منه ، مثل الالتفات والكناية والإيغال والتذييل والاعتراض .. إلخ .

ثالثًا : اختلافهم في الفنون البديعية نفسها .. فقوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ** ﴾ (سبأ:٢٤) يعده بعضهم إيهامًا ، وبعضهم تورية وآخرون يذكرونه تحت اسم «تجاهل العارف»[2]، والمطابقة درج الأكثر على أنها : الجمع بين الأضداد أو ما في حكمها مثل : الليل والنهار ، والصدق والكذب .

وقدامة بن جعفر يخرق هذا الإجماع ويرى أن المطابقة هي ، اشتراك المعنيين في لفظة واحدة بعينها ، ومثَّل لها بقول الأفوه الأودي :

وَأَقْطَعُ الهَوْجَلَ مُسْتَأْنِسًا بِهَوْجَلٍ عَيْرَانَةٍ عَنْتَرِيسْ

فلفظ «الهوجل» في البيت اشترك في معنيين : المفازة البعيدة ، والناقة التي بها هوج من سرعتها .

---

(١) الإيضاح ص ٦ .

(٢) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ص ٩٧ .

أما المطابقة .. فهي عنده التكافؤ ، وهذا التكافؤ يطلقه ابن أبي الإصبع على المطابقة إذا كان طرفاها مجازيين وكانت الأوصاف لموصوف واحد[1] .. وأمثلة هذا كثيرة جدًّا .

رابعًا : إيرادهم فنونًا مختلفة تحت اسم واحد ، فالتطريز ـ مثلاً ـ يُعرِّفه أبو هلال بقوله : « أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن فيكون فيها كالطراز في الثوب ... » .

ثم يقول : « وهذا النوع قليل في الشِّعر ، وأحسن ما جاء فيه قول أحمد ابن أبي طاهر :

إذَا أبُو قَاسِمٍ جَادَتْ لَنَا يَدَهُ ... لَمْ يُحْمد الأجْوَدانِ : البَحْرُ وَالمَطرُ
وَإنْ أضَاءَتْ لَنَا أنْوَارُ غُرَّتِهِ ... تَضَاءَلَ الأنْوَرانِ : الشَّمْسُ والقَمَرُ
وَإنْ مَضَى رَأيُهُ أوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ ... تَأخَّرَ المَاضِيَانِ : السَّيْفُ وَالقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ حَذرًا مِنْ حَدِّ صَوْلَتِهِ ... لَمْ يَدْرِ مَا المُزْعِجَانِ : الخَوْفُ والحَذَرُ[2]

ويعرِّفه ابن أبي الإصبع فيقول : « أن يذكر المتكلم ـ شاعرًا أو ناثرًا ـ جملاً من الذوات غير منفصلة ثم يخبر عنها بصفة واحدة من الصفات مكررة بحسب العدد الذي قدَّره في تلك الجُمَل الأولى »[3] .

ومثَّل له بقول ابن الرومي :

أمُورُكُمو بَني خَاقَانِ عِنْدِي ... عِجَابٌ فِي عِجَابٍ فِي عِجَابِ
قُرُونٌ فِي رُءُوسٍ فِي وُجُوهٍ ... صِلابٌ فِي صِلابٍ فِي صِلابِ

فأيهما التطريز إذن ؟

لعل الصواب في ذلك مع ابن أبي الاصبع ، لأن ما ذكره أبو هلال قد عدَّه العلماء من فن التوشيع ، وعرَّفوه بـ : « بأن يأتي المتكلم ، باسم مثنى في حشو

---

(١) انظر : كتاب بديع القرآن ، ابن المعتز ص ٣٢ .
(٢) سر الصناعتين ، أبو هلال العسكر ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
(٣) تحرير التحبير ، ابن أبي الإصبع .

العجز ثم يأتي تلوه باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى يكون الأخيرة منهما قافية بيته ، أو سجعة كلامه ..»[1].

والتوشيع معروف أنه أحد فروع الإطناب الذي هو من مباحث المعاني ، وهذا يقوي وجهة نظر ابن أبي الإصبع .

● **سبب الخلط :**

ولعل السر في هذا الخلط راجع للأسباب الآتية :

١- كثرة الكاتبين في الفن البديعي .

٢- مرونة الفن البديعي نفسه .

٣- دقة علله وتداخل جهاته .

ولنعرض ـ الآن ـ نماذج من صور البديع في القرآن الكريم ثم نعقب ذلك بفصل نتبين فيه منزلة البديع عامة ، وبلاغة البديع في القرآن خاصة .

على أننا في ذكرنا لتلك النماذج سنجعل الأساس في ضبطها ما ذكره ابن أبي الإصبع في كتابه «بديع القرآن» لأنه حرص على التمثيل لكل فن من فنونه بنصوص قرآنية ، أما غيره فإن التمثيل بالقرآن ليس بلازم عندهم وهذا لا يمنع من ذكر آراء الآخرين إذا تطلَّب ذلك غرض هام .

١- الطباق :

لم يعرِّفه ابن أبي الإصبع بل اكتفى بتقسيمه فقال : «الطباق على ضربين : حقيقي ومجازي .. وكل من الضربين على قسمين : لفظي ومعنوي ، فما كان بألفاظ الحقيقة أبقوا عليه اسم الطباق ، وما كان كله بألفاظ المجاز أو بعضه سموه تكافؤًا بشرط أن تكون الأضداد لموصوف واحد ، فإن كان الضدان أو الأضداد لموصوفين والألفاظ حقيقية فهو الطباق إن كان الكلام جامعًا بين

(١) الصبغ البديعي ـ الدكتور أحمد إبراهيم موسى ص ٢٨٣ .

ضدين فذين ، وإن كانت الأضداد أربعة فصاعداً كان ذلك مقابلة .. فالفرق بين الطباق والمقابلة من وجهين :

أحدهما : أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين فذّين فقط ، والمقابلة لا تكون إلا بما زاد على الضدين من الأربعة إلى العشرة .

« والوجه الثاني : المقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد »[1] .

والعلماء[2] ـ ما عدا قدامة بن جعفر ـ على أن الطباق هو الجمع بين الشيء وضده ، وابن الأثير يُصوِّب رأي قدامة هذا ، ويرى أن المعنى اللغوي للكلمة ينصره[3] .

ومثَّل ابن أبي الإصبع للتكافؤ بقوله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ** ﴾ (البقرة:١٦) .

ومن شواهد التكافؤ قوله تعالى : ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ** ﴾(الأنعام:١٢٢)، أي ضالاً فهديناه ..

وعلى هذا فلا بد أن يكون في الكلام المتضمن التكافؤ استعارة ، فإن لم تكن فيه استعارة فلا تكافؤ .

أما الطباق الحقيقي فهو على ثلاثة أقسام : طباق سلب ، وطباق إيجاب ، وطباق ترديد .

ومثَّل للأول بقوله تعالى : ﴿ **وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً** ﴾ (الأعراف:١٤٦) .

---

(١) بديع القرآن ، ابن المعتز ص ٣١ وما بعدها .

(٢) انظر مثلاً : أسرار البلاغة لعبد القاهر ـ ص٤ ، والمفتاح للسكاكي ص ١٧٩ ، وسر الصناعتين لأبي هلال ص ٢٣٨ ، وبديع القرآن لابن المعتز ص ٦٦١ لعبد المنعم خفاجي ، والمثل السائر لابن الأثير : ١٤٣/٣ شرح طبانة ... إلخ .

(٣) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٣٦ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة:٦) .

وقوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾(المائدة:١١٦).

ومثَّل للثاني بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (النجم:٤٣-٤٥) .

ثم علَّق على هذه الآيات فقال : « فانظر إلى فضل هذا الطباق ، كيف جمع إلى الطباق البليغ التسجيع الفصيح لمجيء المناسبة التامة بين فواصل الآي »[١].

قال[٢] : ومما جاءت المطابقة فيه على انفرادها من هذا القسم قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ (الرعد:٨) .. أي ما تنقص وما تزيد .

ومن هذا القسم قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون:٢،٣) .

فجمع سبحانه للمؤمنين في هذا الوصف بين الفعل والترك .. وهذا كله من طباق الإيجاب المعنوي .

والقسم الثالث ـ طباق الترديد ـ قسَّمه أيضًا إلى قسمين : طباق سلب ، وطباق إيجاب .

وعرَّفه فقال : « أن يرد آخر الكلام المطابق على أوله ، فإن لم يكن مطابقًا فهو رد الأعجاز على الصدر »[٣].

ومثَّل للموجب بقوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة:٢١٦) .

(١-٣) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٣٣ .

وقد جمعت هذه الآية بين المقابلة وبين طباق السلب المعنوي ، فالمقابلة بين الكراهية والحب ، والخير والشر ، والطباق بين ثبوت العلم لله ، ونفيه عن البَشر .

ولم يمثِّل لطباق الترديد السلبي ، وقد صرَّح بأن للطباق نوعًا غير ما تقدَّم يجتمع فيه الطباق والتكافؤ ، ومثَّل له بقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج:٥) .

فهمود الأرض واهتزازها ضدان ، لأن الهمود سكون خاص ، والاهتزاز ههنا حركة خاصة ، وهما مجازان ، والربو والإنبات ضدان ، وهما حقيقتان ، فالأول تكافؤ والثاني طباق[1] .

أما أبو هلال فقد ساق للطباق الآيات الآتية :

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ (فاطر:١٣) .. وهو من طباق الترديد الموجب .

﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (الأحزاب:٤٣) .. أي من الكفر إلى الإيمان وهو من التكافؤ ـ حسب ما ذكره ابن أبي الإصبع .

وقوله تعالى : ﴿ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾(الحديد:١٣).. وهذه مقابلة بين الباطن والظاهر ، والرحمة والعذاب .

وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ (الروم:١٩) .. وقد جمعت هذه الآية العكس والتبديل إلى الطباق .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (الفرقان:٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣) .

وهو من طباق السلب الحقيقي المعنوي .

---

(١) وفي الآية حديث طويل . انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٣٤ ، ٣٥ .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ ﴾ (الفرقان:٧٠).

ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴾ (النجم:٤٣،٤٤) .

فقال : « وقد تنازع الناس هذا المعنى ، قال ابن مطير : « تَضْحَكُ الأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ» .

وقال آخر : « ضَحِكَ المُزْنِ بِهَا ثُمَّ بَكَى» .

وقال آخر :

فَلَـهُ ابْتِسَـامٌ فِـي لَوَامِـعِ بَرْقِـهِ وَلَـهُ بُكًـا مِـنْ وَدْقِـهِ المُتَسَـرِّبِ

وقال آخر :

لا تَعْجَبِـي يَـا سَـلْمُ مِـنْ رَجُـلٍ ضَـحِكَ المَشِـيبُ بُرَأْسِـهِ فَبَكَـى

ثم علَّق عليها فقال : « فلم يقرب أحد لفظ القرآن في اختصاره وصفائه ورونقه وبهائه وطلاوته ومائه وكذلك جميع ما في القرآن من الطباق»[1] .

وهذه لمحة نقدية بارعة لم نعثر على مثلها عند ابن أبي الإصبع ، وإن كان هو مولعًا بتحليل الأسلوب القرآني .

وقد زاد ابن الأثير والخطيب القزويني موضعًا فيه دقة ، وهو قوله : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ (الفتح:٢٩) .

قال ابن الأثير : « فإن الرحمة ليست ضد الشدة ، وإنما ضد الشدة اللين ، إلا أنه لما كانت الرحمة من المسببات عن اللين حسنت المقابلة بينها وبين الشدة»[2] .

أما الخطيب .. فقد جعل هذا الموضع من الملحق بالطباق ، وعللَّه بما علَّل به ابن الأثير ، ثم قاس عليه موضعًا آخر هو قوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ (القصص:٧٣).

---

(١) انظر كتابه : سر الصناعتين ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير : ١٥٢/٣ .

فإن ابتغاء الفضل يستلزم الحركة المضادة للسكون ، والعدول عن لفظ الحركة إلى لفظ «ابتغاء الفضل» ، لأن الحركة ضربان : حركة لمصلحة وحركة لمفسدة ، والمراد الأولى لا الثانية[1] ، واستبدال هذا اللفظ بذاك نوع بديعي يسمى الإرداف[2].

● الطباق والتشبيه المسلوب :

ذلك ما ذكره العلماء من تقعيد وتصنيف لهذا الفن البديعي «الطباق» ، والواقع أنه كثير الورود في القرآن الكريم ، وربما كان أكثر ألوان البديع وروداً فيه ، وكل ما ذكرناه من أمثلة التشبيه السلبي في القرآن داخلة في أسلوب الطباق ، وهو غير مقصور عليه بل تعداه إلى كثير من صور التعبير وذلك أن القرآن كثيراً ما يتحدث عن الإيمان والكفر في سياق واحد أو ما يشبه السياق الواحد ، والطاعات والمعاصي ، والظلمات والنور ، والنفع والضر ، والرشد والغي ، والجنة والنار ، والسماء والأرض ، والحسنات والسيئات ، والحياة والموت ... إلى غير هذه المعاني المتقابلة ، ولذلك كان أسلوب الطباق أصيلاً فيه لم يجتلب تكلفًا أو ترفًا في الأسلوب ، بل هو من مقتضيات الأحوال إذا ما أحسنَّا التفكير والفهم ، يقول سبحانه : ﴿ **أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الملك:٢٢) .

ويقول : ﴿ **ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ** ﴾ (الملك:٢) .

ويقول : ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ** ﴾ (الأنعام:١٢٥).

وقال : ﴿ **مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ (النساء:٨٠).

---

(١) الإيضاح : ١٥/٦ - شرح عبد المنعم خفاجي .

(٢) انظر : بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٨٣ .

وقال : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ (النساء:٨٣) .

وقال : ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ (المائدة:١٦) .

وقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة:٤٠) .

وقال : ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ (الأعراف:٥٨) .

وقال : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ (الأعراف:١٣١) .

وقال : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (هود:١٠٠) .

وقال : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ (الرعد:١١) .

وقال : ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (الحجر:٧٤) .

● **نتائج مهمة :**

من تلك النصوص التي ذكرناها ـ وهي قليل من كثير ـ نتبين الأمور الآتية:

أولاً : أن القرآن يستخدم أسلوب الطباق كثيرًا ، وهي كثرة قد تفوق كل ألوان ما سموه « البديع » وذلك في المجالات الآتية :

(أ) العظة والاعتبار عندما يقص أنباء الأمم الماضية مثلاً .. كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (هود:١٠٠) .

(ب) بيان قُدرة الله ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ .

(جـ) للتمييز بين نوعين مختلفين ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الملك:٢٢) .

(د) في تمثيل الحقائق تمثيلاً يتضمن المدح في جهة ، والذم في أخرى .. وذلك كقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (البقرة:٢٥٧) .

(هـ) في الكشف عن سلوك قوم ضلُّوا عن الحق .. كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ (الأعراف:١٣١) .. وغير ذلك كثير ، قد تتعدد أغراضه بتعدد أمثلته .

ثانيًا : أن القرآن يستخدم هذا الأسلوب في معان أساسية داخلة ـ لا محال ـ ضمن مقتضيات الأحوال ، وهو بهذا يسمو بالطباق ـ كما يسمو بغيره من ألوان البديع ـ فوق ما يعتبره البلاغيون من الحسن الإضافي إلى الدلالة الذاتية ، خاصة عندما يُجرى القرآن مقارنة بين حقيقتين مختلفتين فيكون التقابل بينهما ـ حينئذ ـ واجبًا في حكم البلاغة .. وإلا فكيف يمكن إجراء تلك المقارنة في غياب طرفيها ؟

ثالثًا : أن الطباق في القرآن الكريم ـ ومثله كل فنون البديع ـ يؤدي دورًا هامًّا في مظاهر إعجازه ، وهو سمة عظيمة من سمات أسلوبه قد سلم ـ مع كثرته ـ من التكلف بل هو آية الحسن ومصدر العجب ، بينما نرى كل مسرف فيه يسير ثم يكبو ، ويصيب ثم يخطئ .. وإن شئت فوازن بين قوله تعالى ، وقد طابق فيه بين أربعة وأربعة : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل:٥-١٠) .

وبين قول الشاعر وقد طابق فيه بين خمسة وخمسة :

أَزُورُهُمْ وَسَوادُ اللَّيْلِ يِشْفَعُ لِي وَأَنْثَنِي وَبَيَاضُ الصُبْحِ يُغْرِي بِي

وازن بينهما لترى الفَرق من حيث نزاهة الألفاظ وجزالتها في القرآن ثم دقة التعبير وشرف المعنى ، وهل أنت واجد في قولة هذا الشاعر نظيراً لتلك ؟

ولم يسلم بيت أبي الطيب المذكور من المآخذات ، قال ابن سنان ينقده : « فهذا البيت مع ما به من التكلف ، كل لفظة من ألفاظه مقابلة بلفظة هي لها

عن طريق المعنى بمنزلة الضد : فأزورهم وأنثنى ، وسواد وبياض ، والليل والصبح ، ويشفع ويغري ، ولي وبي ، وأصحاب صناعة الشعر لا يجعلون الليل والصبح ضدين ، بل يجعلون ضد الليل النهار ، لأنهم يراعون في المضادة استعمال الألفاظ ، وأكثر ما يقال : الليل والنهار ، ولا يقال : الليل والصبح »[1].

● **شروط الطباق :**

ويضع ابن سنان شرطًا لاستعمال الطباق ، لم يخالفه فيه أحد قال : « وهذا الباب يجري مجرى المجانس ، ولا يستحسن منه إلا ما قَلَّ ووقع غير مقصود ولا متكلف .. فأما إذا كان مَعْنيا الكلمتين غير متناسبين لا على جهة التضاد ولا التقارب فإن ذلك يقبح »[2] .

فحُسن الطباق إذن يتوقف على ثلاثة أمور :

١- عدم الإسراف فيه . ٢- تناسب المعاني بالتضاد .

٣- تناسب المعاني بالتقارب .

وكذلك يرى عبد القاهر الجرجاني : « وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع فلا شُبهة أن الحُسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة ، من غير أن يكون في ذلك للألفاظ نصيب ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد أو تصويب »[3] .

وعملاً بهذه القواعد حكموا بحسن كثير من النصوص ، كما عابوا كثيرًا منها .

٢- التورية :

التورية نمط من التعبير فيه خلابة وله أسر ، ومادة « ورى » تدور في اللغة حول الاختفاء والستر .

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ـ شرح عبد المتعال الصعيدي ص ١٩٣ .

(٢) المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٣) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص ١٤ .

يقال : واريت كذا ـ إذا سترته ، قال تعالى : ﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ ﴾ (الأعراف:٢٦) .

وتوارى : استقر ، قال : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (ص:٣٢) .

وروى أن النبي عليه السلام كان إذا أراد غزوًا أورى بغيره ، والورى ـ قال الخليل ـ : « الورى الأنام الذين على وجه الأرض في الوقت ، ليس مَن مضى ولا مَن يتناسل بعدهم فكأنهم الذين يسترون الأرض بأشخاصهم »[1] .

والتورية في اصطلاح البلاغيين عرَّفها ابن أبي الإصبع فقال : « أن تكون الكلمة تحتمل معنيين ، ويستعمل المتكلم أحد احتماليها ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله »[2] .

وقد صرَّح قبل بأنها تسمى التوجيه ، وهذا التعريف فيه طول .

وأجود منه ما ذكره الخطيب : « أن يطلق لفظ له معنيان . قريب بعيد ، ويراد به البعيد منهما »[3] .

وأجود منهما ما نراه في بحوث المحدَثين : « التورية : أن يذكر لفظ له معنيان : بعيد مراد ، وقريب غير مراد » .

والفرق بينهما وبين التوجيه أن المعنيين في التوجيه في نحو قول الشاعر في أعور : « لَيْتَ عَيْنَيهِ سَوَاء » .

إن تصور المعنيين في التوجيه يأتي بدرجة واحدة لا قُرب ولا بُعد في أحدهما ، أما التورية .. فأحد المعنيين قريب ، والآخر بعيد ، فليسا سواء في التصور ، والمناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي ظاهرة لأن المعنى القريب غير المراد ، يستر البعيد ويخفيه .

---

(١) مفردات القرآن ، الراغب الأصفهانى ص ٥٢٠ .
(٢) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ١٠٢ .
(٣) الإيضاح : ٣٩/٦ ، شرح خفاجي .

وقد قسَّم الخطيب ـ وتابعه آخرون ـ التورية إلى : مجردة ومرشحة[1] ، والمجردة هي التي لا تجامع شيئًا مما يلائم الموري به ـ يعني المعنى القريب ـ الذي يشبه المعنى الحقيقي لتبادره إلى الفهم ، ومثله من القرآن الكريم : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه:٥) .

فـ « استوى » له معنيان ، قريب هو الاستقرار ، وهو غير مراد ، ولم يقرن بما يلائمه .

ومعناه البعيد المراد هو الاستيلاء ، والقرينة استحالة الاستقرار الحسي في جانب الله .

والمرشحة هي التي قرنت بما يلائم الموري به ومثاله من القرآن الكريم : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات:٤٧) . فقد أراد بـ « الأيدي » المعنى البعيد الذي هو القدرة ، وقد قرن بها ما يلائم المعنى القريب الذي هو الجارحة المخصوصة ، وهو « بنيناها » لأن البناء يكون باليد ، والذي يبدو أن الآية من قبيل الاستعارة التمثيلية إذ معناها يرجع إليها عند التحقيق[2] .

وعلى القول المشهور بأنها تورية فإن القرينة هي استحالة الجارحة في حق الله سبحانه .

وللتورية ـ كما يرى السكاكي ـ دور كبير في توجيه متشابهات القرآن كقوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ (المؤمنون:٢٧) .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ (الرحمن:٢٦،٢٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦) .

---

(١) الإيضاح : ٣٩/٦ ، شرح خفاجي .

(٢) شروح التلخيص ـ لأبي يعقوب المغربي : ٣٢٤/٤-٣٢٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ (ص:٤٧) .

فما في هذه الآيات ، وما أشبهها ، من إثبات العين أو الوجه ، أو القُرب والمكان ، كلها محمولة على التورية ، بأن يراد من الأعين : الرعاية والحفظ ، ومن الوجه : الذات التي لا يعلمها إلا هو ، والقُرب : قُرب العلم لا قُرب المكان والملاصقة ، ومن العندية : العندية المعنوية لا عندية المكان ، وقد ذكر ابن أبي الإصبع ثلاثة مواضع أخرى كانت التورية فيها في معان ليست وصفًا لله ، وهي قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يوسف:٩٥) لأن الضلال يُحمل على ضد الهدى ويحتمل الحب ، فاستعملوه مريدين به ضد الهدى مورين به عن الحب ليعلم أن المراد ما أهملوا ، لا استعملوا[١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ (يونس:٩٢) .. فالبدن يُطلق على الجسد ، وعلى الدرع ، وقد استعمله بمعنى الجسم وأهمل معنى الدرع ومراده ما أهمل ، لأن نجاة فرعون ـ أي خروجه من البحر بعد الغرق ـ بدرعه ، أعجب من خروجه مجردًا[٢] .

ثم قال : «ومن التورية اللطيفة قوله تعالى بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ (البقرة:١٤٥) .

ولما كان الخطاب لموسى عليه السلام من جانب الطور الغربي توجهت اليهود إليه وتوجهت النصارى إلى الشرق ، وكانت قبلة الإسلام وسطًا بين القبلتين قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة:١٤٣) أي خياراً ، وظاهر اللفظ يوهم التوسط مع ما يعضده من توسط قِبْلة المسلمين ، صدق على لفظ «وسط» هنا أن يسمى تعالى به ، لاحتماله المعنيين ، ولما

(٢،١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ١٠٢ .

كان المراد ـ والله أعلم ـ أحد المعنيين الذي هو الخيار دون الآخر ، صلحت أن تكون من أمثلة هذا الباب[1] .

وأيًّا كان .. فإن التورية في القرآن الكريم لها وظيفة هامة ، وهي قريبة من المجاز ، بل كثيراً ما يُراد المعنى المجازي فيها كإرادة القُدرة من اليد ، وهذا ظاهر فيها .

وقد سبق عن السكاكي أن متشابهات القرآن من قبيل التورية ، فهي فيه إذن ذات دور هام لم تُجتلب لتأدية معنى إضافي ، أو تحسين عرضي ، فعدها من البديع فيه تسامح ، وأجدر بها أن تلحق بأقسام البيان إنصافًا ووصفًا لكل فن في موضعه ، وإلى هذا ذهب العصام في «الأطول» حيث قال في تعريفها : «فالمختصر الواضح أن يقال : هو أن يطلق اللفظ على غير ما وضع له بقرينة خفية مما يتعلق بإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة» .

ثم قال : «فهو داخل في أصل البلاغة فكيف عُدَّ من البديع»؟[2] .

٣- المشاكلة :

عرَّفها الخطيب[3] ، وغيره ، فقال : «ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ، تحقيقًا أو تقديراً» .

ومثَّل لها من القرآن بقوله : ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾ (المائدة:١١٦) .. فأطلق النفس على ذات الله .

وقوله تعالى : ﴿ **وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثْلُهَا** ﴾ (الشورى:٤٠) .. فسمى الجزاء سيئة .

أما وقوعه تقديراً فقد مثَّل له بقوله تعالى : ﴿ **صِبْغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً** ﴾ (البقرة:١٣٨) .. أي تطهير الله .

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ١٠٣ .
(٢) الأطول ، العصام : ١٩٤/٢ .
(٣) الإيضاح : ٢٧/٦ .

وفي الواقع فإن أسلوب المشاكلة كثير في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة:١٩٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال:٣٠).

وقوله تعالى : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح:١٠) .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه:١٢٦).

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة:١٤،١٥).

وقوله تعالى : ﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ (هود:٣٨) .

هذه بعض النصوص التي وردت على أسلوب المشاكلة من القرآن الكريم وهي ذات ملامح بلاغية آسرة ، ولنأخذ لذلك أمثلة :

في قوله تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى:٤٠) . على طريق المجاز المرسل الذي علاقته المسببية ، لأنه مسبب عن السيئة وهذا تعبير اقتضاه الحال لأن فاعل السوء قمين بأن يُساء إليه ، فإطلاق السيئة على الجزاء أوقع لإقلاعه عن عمل السيئات وآلم على نفسه ،لأن النفس ترهب أن تُعامَل بالسوء.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ (البقرة:١٩٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ ﴾ .. سمى الجزاء كذلك اعتداءً وسخرية ليكون أوقع في نفس المعتدي فيكف عن الاعتداء ، وفي نفس الساخر ليُقلع عما هو فيه .

أما في نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:٥٤) .. أي جازاهم على مكرهم ـ فإن العدول إلى لفظ «المكر» في جانب الله لتربية الرهبة في نفوس الماكرين لأن الويل كله لمن مكر الله عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه:١٢٦) .. فيه تهكم بالمخاطَب وتوبيخ على ما قدَّم ، لأن الواقع ألا نسيان ولا إهمال بل جزاءً وفاقًا ، أي نعاملك اليوم بمثل ما كنتَ تعاملنا به في الحياة الدنيا .

● أصالة المشاكلة في القرآن :

فأسلوب المشاكلة أسلوب أصيل في القرآن الكريم ، وهو جدير بأن يُلحَق ـ كذلك ـ بأقسام البيان الأصيل ، لأنه من مقتضيات الأحوال ، كما نَصَّ على ذلك العصام فيما نقلناه عنه ، فهي إما مجاز مرسل كقوله تعالى : ﴿ **وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا** ﴾ (الشورى:٤٠) وما جرى مجرى هذه الآية ، وإما استعارة كقول أبي الرقعمق[١] :

قَالُواْ : اقْتَرِحْ شَيْئًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ قُلْتُ اطبِخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا

قال الإنبابي : « وقد تلخَّص من كلام ابن يعقوب والحفيد أن المشاكلة واسطة بين الحقيقة والمجاز والكناية ، وقيل : إنها دائمًا مجاز مرسل علاقته المجاورة التي هي هنا الوقوع في الصحبة ، وقيل : إنها تجامع المجاز المرسل والاستعارة إن لوحظ علاقتهما ، وإلا فهي واسطة ـ قاله بعض المشايخ »[٢].

وقد خالف عبد الحكيم القول بأن المشاكلة من المجاز فقال معلقًا عليه : « القول بكونه مجازًا ينافي كونه من المحسنات البديعية ، وأنه لا بد في المجاز من اللزوم بين المعنيين في الجملة ، فتعيَّن الوجه الأول »[٣] .

ومهما كان الخلاف فإن المشاكلة من أساليب البلاغة الأصيلة وليست محسنًا ثانويًا كما يقال عنها ، ولها فوق ما تؤديه من خدمة للمعاني وظيفة من حيث اللفظ لا يُستهان بها ، هي : أن المشاكلة بالجُناس من حيث تماثل اللفظين ، بل من الجُناس التام لاتفاق اللفظين في جنس الحروف وعددها وهيئتها وترتيبها ، ولا فرق بينها إلا من حيث المعنى ، وللجُناس وظيفة سنذكرها في موضعها ، وما دامت المشاكلة شبيهة بالجُناس ـ بل التام منه ـ فإن ما يثبت له من مزايا يثبت لها كذلك .

---

(١) هو أحمد بن محمد الأنطاكي ـ شاعر ـ توفي سنة ٣٩٩هـ .

(٢) تقرير الإنبابي على التجريد : ٣٨/٤ .

(٣) فيض الفتاح على حواشي تلخيص المفتاح : ٢٧١/٤ .

٤- صحة الأقسام :

عرَّفه ابن أبي الإصبع تحت هذا العنوان بقوله : « صحة الأقسام عبارة عن استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه ، بحيث لا يغادر شيئًا »[١] .

وعرَّفه أبو هلال تحت عنوان : « صحة التقسيم » فقال : « التقسيم الصحيح أن تُقسِّم الكلام قسمة مستوية تحتوي على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه »[٢] .

وعرَّفه ابن سنان فقال :« أما الصحة في التقسيم فأن تكون الأقسام المذكورة ، لم يخل بشيء منها ، ولا تكررت ولا دخل بعضها تحت بعض »[٣] .

وقد تحدَّث عنه آخرون كعبد القاهر في « الدلائل » ، وابن الأثير وغيرهما وكلهم يرفعون من شأنه ، ويظهرون الاهتمام به ، وقد أفاض ابن أبي الإصبع في التمثيل له من القرآن الكريم وبدأ بقوله تعالى : ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا** ﴾ (الرعد:١٢) .. إذ ليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق ، والطمع في الأمطار ، ولا ثالث لهذين القسمين .. ثم أخذ يبيِّن سر تقديم الخوف على الطمع ، فقال : « ومن لطيف ما وقع في هذه الآية : تقديم الخوف على الطمع ، إذ كانت الصواعق يجوز وقوعها من أول برقة ، ولا يحصل المطر إلا بعد تواتره لا يكاد يختلف ، لهذا كانت العرب تعد سبعين برقة ، وتنتجع فلا تخطئ الغيث »[٤] .

والذي أراه : أن تقديم الخوف على الطمع من تقديم الأهم على المهم ، لأن متعلق الخوف الحرص على أصل الحياة ، ومتعلق الطمع الحرص على الزيادة من متع الحياة .

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٦٥ .
(٢) الصناعتين لأبى هلال العسكري ص ٣٦٧ .
(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢٢٦ .
(٤) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٦٥ .

ومن صحة الأقسام قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ (آل عمران:١٩١) .. فلم يترك سبحانه قسمًا من أقسام الهيئات حتى أتى به ، وقد جاء ترتيب الهيئات على حسب الأفضلية ، فقدَّم الذكر قيامًا عليه قعودًا ، وقدَّم الذِّكر قعودًا عليه رقودًا ، وفي هذا من حسن النسق وجودة الترتيب ما فيه ، ويجوز حمل التقديم فيها على مراعاة الأكثر فالأكثر ، لأن ذكر الله قيامًا أكثر من ذِكره قعودًا ، وذكره قعودًا أكثر من ذكره رقودًا .

ومن صحة الأقسام قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا ﴾ (يونس:١٢) .

فهيئات الدعاء هنا ثلاث كهيئات الذكر هناك ، ولم يفت ابن أبي الإصبع أن يلحظ اختلاف النظم في الترتيب في الآيتين ، فتراه يقول : « لكن وقع بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتها البلاغة ، فتضمن الكلام بها الائتلاف ، وذلك أن الذِّكر يجب فيه تقديم القيام لأن المراد به الصلاة ـ والله أعلم ـ والقعود لمن يستطيع القيام ، والاضطجاع للعاجز عن القعود .

والضر يجب فيه تقديم الاضطجاع لغلبة الضعف ومبادئ الإعلال وتزيدها وإذا أزال بعض العِلَّة .. قعد المضطجع ، وإذا زالت العِلَّة كلها وتراجعت القوة قام القاعد ، والمراد بالدعاء هنا الصلاة أيضًا »[1] .

● **تعقيب :**

وأقول : لقد وُفِّق المؤلف إلى توجيه الترتيب في الآيتين توفيقًا ليس وراءه مزيد فيما نرى ، ولكني أرى ضرورة مناقشته في المراد بالذِّكر والدعاء فيهما.

فقد حمل الذِّكر في الأولى على الصلاة ، وهذا صواب ، ولكن ما المانع أن يراد به مطلق ذكر .. فتدخل الصلاة فيه دخولاً أوليًّا ؟

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٦٧ .

أما الدعاء .. فقد حمله على الصلاة أيضًا ، والأولى ـ هنا ـ حمله على الدعاء الحقيقي ، لأن مس الضر يلجأ منه الإنسان إلى ربه فيدعوه ليكشف عنه ضره فلو أبقاه على أصله لكان أصوب .

كما أشار إلى العدول عن «الواو» إلى «أو» وبيَّن أن السر فيها الإشارة إلى تعداد المضرورين لتوخي الصدق في الخبر[1] .

كما عَدَّ من صحة التقسيم قوله تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾

(الشورى:٤٩،٥٠).

ومن صحة التقسيم كذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة:٣،٤).

فالآية الأولى استوعبت جميع الأوصاف المحمودة إذ وُصِفَ المؤمنون فيها بجميع العبادات . لأن العبادات كلها نوعان : بدنية ومالية ، والبدنية قسمان : عبادة الباطن وعبادة الظاهر ، والمالية أيضًا قسمان : ما يشترك فيه المال والبدن كالحج والجهاد ، وما ينفرد به المال كالزكاة وصدقة التطوع .. فقوله : ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ إشارة إلى عبادة الباطن ، وقوله سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ تصريح بعبادة الظاهر ، وقوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ إشارة إلى العبادة المالية ، فاستوعبت جميع الأقسام على التريب فقدَّم عبادة الباطن على عبادة الظاهر ، وعبادة البدن على عبادة المال .

وأما الآية الثانية فاستوفت أقسام الزمان في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ .

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٦٨ .

فإيمانهم بما أنزل على الرسول إيمان في الحال ، وبما أُنزل على الرسل من قبله إيمان في الماضي ، وإيمانهم بالآخرة إيمان بالمستقبل ، وعبَّر عن إيمانهم بالآخرة باليقين ليدل على قوة تصديقهم بالرسول وما أخبر به .

قال ابن أبي الإصبع : « فحصل في هذه الآية مع نهاية المدح صحة الأقسام في اللفظ ، والمبالغة في معنى المدح والإيغال في الفاصلة »[1] .

ثم تعرَّض لنقض بيت زهير ، وهو أجمل ما جاءت فيه صحة التقسيم وأبلغه ، وهو قوله :

وَأَعْلَمُ مَافِي اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي

داعيًا للموازنة بينه وبين الآية الثانية من آيتي البقرة ، منتصراً للآية عليه مبيِّنًا ما فيه من زيادة لم يؤت بها إلا من أجل الوزن ، وهي قوله : « قبله » ملاحظًا ما بين فاصلة الآية وقافية البيت من فروق جوهرية ، لافتًا النظر إلى ما تضمنته الآية الكريمة من معان شريفة ، لو عددت بألفاظها الموضوعة لها ملأت الأكوان[2] .

وذكر ابن الأثير لصحة التقسيم نصوصًا غير ما ذكره ابن أبي الإصبع ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ** ﴾ (فاطر:٣٢) .

قال معلِّقًا على هذه الآية : « وهذه قسمة صحيحة ، فإنه لا يخلو العباد من هذه الثلاثة : فإما عاص ظالم لنفسه ، وإما مطيع مبادر بالخيرات ، وإما مقتصد بينهما »[3] .

ومثَّل أيضًا بقوله تعالى : ﴿ **وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ** ﴾ (الواقعة:٧-١٠).

---

(١) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٧١ .

(٣) المثل السائر لابن الأثير : ٩٦٧/٣ .

وقال معلِّقًا عليها : « وهذه الآية منطبقة المعنى على الآية التي قبلها : فأصحاب المشأمة هم الظالمون لأنفسهم ، وأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، والسابقون هم السابقون بالخيرات »[1] .

● رأي ابن الأثير :

ويعالج ابن الأثير في هذا الموضع موضوعًا مهمًّا لم يتنبه إليه سواه قال : « فإن قيل : إن استيفاء الأقسام ليس شرطًا ، وترك بعض الأقسام لا يقدح في الكلام ، وقد ورد في القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (الحشر:٢٠) . فذكر أصحاب الجنَّة دون أصحاب النار ، فالجواب على ذلك أني أقول : هذا لا ينقض على ما ذكرته ، فإن استيفاء الأقسام يلزم فيما استبهم الإجمال فيه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (فاطر:٣٢) فإنه حيث قال : « فمنهم » لزم استيفاء الأقسام الثلاثة ، ولو اقتصر على قسمين منها لم يجز ، وأما هذه الآية التي هي : ﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ فإنه إنما خص أصحاب الجنة بالذِّكر للعلم بأن أصحاب النار لا فوز لهم ، ولو خص أصحاب النار بالذكر لعلم أيضًا ما لأصحاب الجنة وكذلك كل ما يجري هذا المجرى فإنه إنما ينظر فيه إلى المستبهم وغير المستبهم فاعرفه »[2].

٥- المذهب الكلامي :

سبق أن أبا هلال حين تعرَّض لهذا الفن نفي أن يكون منه شيء في القرآن الكريم ، متابعًا في ذلك ابن المعتز ، بحجة أنه مظنة التكلف فالقرآن منزه عنه[3] ، ولم يسلم هذا الزعم من التعليقات ، فابن أبي الإصبع يقول[4] : « الذي

(١،٢) المثل السائر لابن الأثير : ٣/٩٦٧ .

(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٣٢٦ .

(٤) بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص ٣٢٦ .

ذكره ابن المعتز أن الجاحظ سماه هذه التسمية وزعم أنه لا يوجد منه شيء في القرآن ، والكتاب الكريم مشحون به ، منه قوله تعالى ـ حكاية عن الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام ـ : ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ﴾ ... إلى قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ (الأنعام:٨٣) .. ثم ذكر تعريفه فقال : « إنه احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام » .

وفي هامش الصناعتين[١] : « هو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام ، وهو أن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة المطلوب » .. ومؤدى التعريفين واحد كما ترى .

ومن أمثلته في القرآن الكريم : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ (الزخرف:٨١) .

قال الزمخشري : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ﴾ وصَحَّ ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحُجَّة واضحة تدلون بها فأنا أول من يُعَظِّم ذلك الولد ، وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له .. وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شُبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علَّق العبادة بكينونة الولد ، وهي محال في نفسها ، فكان المعلَّق بها محالاً مثلها ، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة ، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها[٢] .

وليس في هذا الكلام اعتراض لنا ـ بل هو في غاية الجودة ـ بَيْدَ أني أضيف ملاحظتين :

أولاهما : أن نفي الولد مستفاد من نفي عبادته ، فالرسول إنما كان يعبد الله وحده .

---

(١) صفحة ٣٢٦ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٠٩/٢ وما بعدها .

ثانيهما : أن في هذا التعبير رميًا لهم بالجهل ، فإن الرسول عليه السلام يقول لهم : يا معشر الجاهلين ؛ أنا أعلم منكم بالله وما يجب له ، ولو فُرِضَ أن له ولدًا وصحَّ ذلك عندي لكنت أولاكم بالطاعة والامتثال له .

ومن شواهد هذا الفن في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (الروم:٢٧) .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ (الأعراف:٤٠) .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ (النحل:١٧) .

وغير ذلك كثير ، والواقع أن ما سموه بالمذهب الكلامي دعامة أساسية في الأسلوب القرآني ، مثل الطباق ، لأن القرآن خاصمَ وجادَل كثيرًا في سبيل إحقاق الحق ، ودحر الباطل ، وكثيرًا ما كان يُشرك العقل والإحساس والعواطف والوجدان في الخطاب ، ولذلك فإن المذهب الكلامي فيه لم يأت على الطريقة المنطقية الجافة ، بل ساق لهم الحقيقة نابضة حية لا يحير في تمثيلها عقل ولا تجمد في الإحساس بها عاطفة ، ولا يتبلد شعور .

● قياس المذهب الكلامي :

وطريقة القياس فيه سهلة واضحة ، ومقدماته صادقة معتَرف بها حتى عند ألد الخصوم ، ونتائجه واضحة مسلَّمة إلا مَن كابر وعاند وناقض نفسه والواقع.

انظر إلى هذا الوضوح : ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ (غافر:٥٧) وهذه حقيقة مسلَّمة .

ثم انظر كيف استخدم القرآن هذه الحقيقة في إثبات البعث : ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ (يس:٨١).

ثم تأمل كيف وصل القرآن إلى نفي تعدد الآلهة في كلمات قصار لفتت الأنظار إلى حقيقة كبرى لا يختلف فيها اثنان ، ثم اتخذ من هذه الحقيقة الكبرى مبدأً للقياس : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢٢) .

لا فساد في السموات والأرض ، هذا حق ثابت ، إذن فهو دليل التوحيد فلا إله إلا الله .

ذلك هو دور المذهب الكلامي في القرآن .. جدل حي ، ومنطق وجدان .

* * *

obeikan.com